

يا قدس، يا مدينة الصلاة

" ولما كانت له إثننا عشر سنة، صعدا به إلى اورشليم، كعادتهما العيد، وبعد أن أكملنا الأيام بقي الصبي يسوع في اورشليم، عند رجوعهما."

هذا ما جاء في إنجيل القديس لوقا 2: 42. من هذه العبارة نفهم أن السيدة العذراء مريم برفقة القديس يوسف وصحبهما توجهوا من الناصرة إلى اورشليم كي يقوموا بتأدية فريضة دينية حسب الناموس. ومن سياق ما تروييه لنا الأناجيل نستنتج أن فريضة الحج هذه كانت سنوية وإلزامية. وقد احترمها سيد الإنجيل طوال حياته التبشيرية.

بعد صعود السيد المسيح إلى أبيه السماوي، لا يذكر لنا التاريخ شيئاً عن حجّ المسيحيين إلى القدس، حتى كانت سنة 160 ميلادية وجاء الأراضى المقدسة السيد ميلتون دي سارد ساعياً للحصول على المعلومات حول الكتب المقدسة القانونية، وزار بالطبع كنائس فلسطين... وهذا يعني أن الكنيسة لم تفرض على المؤمنين زيارة الأراضى المقدسة، كعادة اليهود أو الشعوب المجاورة.

مع مرور الزمن، وبعد أن أصدر الأباطور قسطنطين الكبير قراراً بمنح حرية الأديان سنة 313، وبعد أن وجدت والدته القديسة هيلانة الصليب المقدس، في الجلجلة، ثم بناء كنيسة القيامة وكنيسة المهد... أخذ عدد زوار الأراضى المقدسة يزداد وينمو، وأصبح الحجّ عملاً إيمانياً تقوياً وواجباً دينياً محموداً... ويروي لنا التاريخ أن بعض الكهنة والرهبان كانوا يفرضون على بعض المتقدمين إلى الاعتراف بزيارة القدس، كفارة عن ذنوبهم وتقرباً من الفادي الإلهي.

ومن المعلوم أن الحجّ المسيحي كان يتمّ لأسباب عدّة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- بعد نذر تحقق ووفاء على نعمة حصلت بشفاة العذراء أو أحد القديسين،

- التقرب من الله وملاقاته في أماكن العبادة لاستمرار النعم الإلهية،

- الرغبة الجامحة للتعرف عن قرب على الأماكن التي حصلت فيها العجائب،

- طلباً لإبعاد المصائب والأمراض وخوفاً من الظواهر الخارقة والماورائيات،

- سعياً لإيجاد حقيقة مختلفة عما يجده الإنسان في حياته اليومية...

مساء الخميس 16 / 4 / 2009، احتفلت الكنائس الشرقية بذكرى غسل السيد المسيح أرجل تلاميذه، قبل العشاء السري الأخير... وكانت إحدى محطات التلفزة تعرض برنامجاً خاصاً بهذه المناسبة. فأخذ المصور يتوجّه بالكاميرا على معالم المدينة المقدسة، وصوت فيروز يصدح رائعاً: "يا زهرة المدائن، لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي". ... يا قدس، يا مدينة العبادة، يا قدس منك المعذرة لأننا كدنا ننسك يا زهرة المدائن التي حرمانا من الوصول إليك الغاشمون، فنسينا أو كدنا ننسى الأرض الطاهرة التي شاهدت بشارة سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح.

لك منا يا قدس، يا مدينة الصلاة، الوعد الصادق والعهد الأكيد، ألا ننسى من ذرف الدموع ساخنة سخية عليك وبذل دمه على أرضك وسقاها بعرقه كي يفدينا... لن ننساك يا زهرة المدائن، وسنستمر في الصلاة يا مدينة الصلاة، كي لا ننسى جذور إيماننا التي نمت وترعرعت على ترابك الطاهر وتحت ظلال زيتونك المقدس... وسنرجع يوماً نحج إليك ضارعين خاشعين، طالبين السلام والأمان والصحة والتوفيق من سيدنا يسوع المسيح بشفاعته العذراء أمه التي قال فيها القديس أفرام السرياني، ملفان الكنيسة: "عظامي تصرخ من القبر أن مريم والدة الإله".

بعد هذه الوقفة الحزينة على مدينة الصلاة، عدت إلى برنامج التلفزة وإذا بالمصوّر يصل بنا إلى جبل الزيتون وإلى قرية بيت عنيا، ويدخل بنا أروقة دير راهبات دير سيدة الكرمل وينقلنا إلى عالم الروح، عالم الصلاة والخشوع أمام عشرات اللوحات الجدارية التي تحمل عبارات "الصلاة الربية"، مكتوبة بلغات العالم الرئيسية... فبدأت وبلا شعور أدمم عبارات هذه الصلاة الجميلة التي علّمنا إياها فادينا يسوع: "أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس أسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض..." وإذا بي أسمع جموع السائحين الحجّاج يتابعون بلغاتهم المختلفة: "أعطنا خبزنا..."

تقع هذه الكنيسة الرائعة على مقربة من مكان صعود السيد المسيح إلى السماء حسب العرف والتقليد المتواتر المسيحي، منذ مئات السنين...

لم أكمل المسيرة مع المصوّر فقد انتابني شعور من الأسى والحزن ورأيت من الأفضل العودة إلى عالم الأحلام الجميلة، عساها تتحقّق، على صوت فيروز وهي تصدح:

"سنرجع يوماً، يا قدس، يا مدينة الصلاة، سنرجع يوماً نحج سائحين خاشعين، إلى أرضك الطاهرة يا زهرة المدائن؟"

بروكسل، 20.4.2009

فؤاد عزيز قسيس